جزائر للقرن السادس عشر
من خلال وثائق بعض الأسرى الإسبان

الدكتور عبد الله حمادي
مدير المركز الوطني للدراسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 54

1ـ الجزائر كمسرح لظاهرة الأسر (Cautiverio) خلال للقرن السادس عشر الميلادي :

لقد عرفت الإنسانية منذ لأقدم عصورها العديد من الظواهر الغريبة التي كانت تتعلق بالإنسان أو من صنعه ويتجلى من بين هذه الظواهر ظاهرة "الأسر" أو "السبي" وكذلك ظاهرة "الرق" و"العبودية" ولا شك أن الملاحظ لهذين المدلولين يظن أنهما يعنيان نفس المعنى إلا أن المدقق في المجريات التاريخية يدرك في يسر الفارق الضئيل الذي يفصل بين المعنيين، فالأسر أو السبي يقابله في اللغة الإسبانية مثلا "El Cautiverio" والذي ينحدر أصل فعله من اللاتينة وللذي هو: "Captivare" أو "Captivrus". لما المعنى للثاني وهو للرق أو العبودية فيقابله في اللغات الأوروبية "Esclavitud" [1]. إذا، فهناك فارق دقيق يفصل بين المعنين ونحن إذ نهتم بهذه الظاهرة ونحاول الكشف عنها فلا لشيء سوى لكونها عرفت في تاريخ الجزائر لأيام ما يسمى بعصور "رياس البحر" [2] تفشيا ملحوظا تكاد تنفرد به الجزائر من بين دول للعالم. أقول تكاد ولا أجزم، الأمر للذي جعل هذه الظاهرة تترك بصمات بارزة في الآثار التاريخية والفكرية والإبداعية في جزائر للقرن السادس عشر الميلادي وما بعده بل الأكثر من ذلك أن عددا لا يستهان به من مثقفي للعالم أجبرتهم الظروف على أن تكون لهم الجزائر محطة تزودهم بما سيميزهم في أعمالهم الإبداعية والتاريخية والفكرية فيما بعد بل بعضهم أدرك الشهرة العالمية ربما بفضل هذه التجربة التي قضاها في الجزائر أسيرا.

إنّ ظاهرة الأسر هذه هي ثمرة من ثمار للتدافع البشري على الوجود، أو ثمرة من ثمار الهيمنة للتي كان من نتائجها رغبة الاستيلاء والاجتياح والتسلط على الطرف الآخر مما أدى إلى الظهور المستمر والمتجدد لظاهرة العداوة في البر والبحر بين الأجناس البشرية. أما للبر فكلنت تُغنَّى فيه تلك الملاحم الكبرى التي تشيدها المعارك والبطولات، وأما في عرض البحر فقد لفرزت عمليات القرصنة واللصوصية ما سيعرف لبتداء من للقرن السادس عشر بحوليات السبيْ أو الأسر للتي طللت حتى النفوس البيئة. وللتدقيق أكثر يجدر بنا أن نشير إلى أن ظاهرتي القرصنة واللصوصية في البحر هما ظاهرتان تختلفان أيضا من ناحية المدلول والأهداف؛ فالقرصنة حسب رأي المحققين يقابلها في الإسبانية مدلول "Corsario" ولما اللصوصية فيقابلها مدلول "Pirata" وكلاهما يتم نشاطه في عرض البحر أو في السواحل وبواسطة الآليات البحرية كاليخت وللزوارق والسفن وللبوارج وما إلى ذلك، لكن نقطة الفارق بينهما تكمن في كون أن ظاهرة "القرصنة" كانت من ابتكار القوى العظمى حيث سخرت في عرض المياه ما يشبه القواعد العائمة لتعمل لصالحها وتحت كفالتها ورعايتها، لكن اللصوصية فهي أيضا تمارس نشاطا بحريا مكثفا لكنه لصالح أفرادها، إنلم نقل هي ثمرة من ثمار بعض الأفراد، كما كلنت الحال بالنسبة للأخوين عروج وخير للدين قبل انضواء هذا الأخير تحت الحماية أو الرعاية العثمانية وأقول الأخير، لأعني بالتحديد خير للدين، لما عروج فقدمات وهو لص من لصوص البحر، أي "Pirata" لأنه كان يعمل لحسابه حسب رأي المصادر التاريخية، لما محصلة هذا

النشاط البحري فهو عدد لا يستهان به من البشر والمتاع يقع من حين لآخر تحت رحمة هذا النشاط الأخير فنتج عنه ما أصبح يسمى عبر للتاريخ بظاهرة العبودية أو للرق. وخلال العصور المتأخرة ما يسمى بظاهرة السبي أو الأسر "Cautiverio" ولأننا سنلاحظ من خلال تعريفنا الموجز والمبسط لكل من المصطلحين فإن الأسر مثلا وللذي يقابله في اللغة اللاتينية "Captivus" يمكن إطلاقه على أي نوعية من الكلئنات للتي تقع تحت رحمة هذا السطو الإنساني بالقوة أو الصدفة ويدخل ضمن هذه الكلئنات الإنسان للذي لو صادف أو وقع في مثل هذه الأنشوطة لأصبح يعتبر من خلال الأعراف التاريخية المسجلة في حوليات الأسر "بالأسير" إلا أن هذا المفهوم القديم والمستحدث في الوقت ذلته، وخاصة في اللغات الأوروبية، راح يعرف تحديدا وتدقيقا كل مرة أكثر فأكثر إلى أن أصبح يعني في آخر المطاف من خلال ما سجلته بعض الحوليات الإسبانية والآثار الأدبية الأوروبية عامة والإسبانية على وجه الخصوص، لأسباب يطول شرحها، إلاّ أنه بإيجاز شديد يمكن اعتبار هذا التميز للذي عرف به للتاريخ الإسباني من حيث تحديد هذا المدلول مرده إلى التصادم للتاريخي للذي شهده البحر الأبيض المتوسط بين القوتين العظميين آنذاك الإسبانية المسيحية والعثملنية الإسلامية وذلك على مدار يزيد عن ثلاثة قرون، من هناك تحدد مدلول مصطلح "الأسر" "Cautiverio" ليعني بللتدقيق كل فرد مسيحي بغض النظر عن جنسيته يقع أسيرا في قبضة رياس البحر الأتراك الجزئريين المسلمين. فهذه النوعية البشرية هي للتي أصبحت كتب للتاريخ والحوليات والأخبار

والمآثر الإبداعية تنعتها بمصطلح الأسر "Cautiverio"، كما تعني أيضا نوعية الأسر للتي يتعرض إليها وكيفية المعاملة والإطار للذي يتم فيه الحجز طيلة مدة الأسر وللتي غلبا ما تكون تحت الأرض أو في غياهب الجبّ وهو التحديد للدقيق، لأن الحوليات الإسبانية تحدد هذه الأماكن بمصطلح من أصل عربي وهو "Mazmorras" أي "المطامير". وقد حدد لنا الأسير الإسباني الدكتور صُوصَا الحجم الحقيقي لمثل هذه المعلقل الرهيبة فقال: إن الأسير غلبا ما تتم أيامه دلخل غياهب الجبّ عمقها عشرون شبرا وعرضها تسعة وعلوها أحد عشر والتي لا تدخلها الشمس إلا من ثقبة واحدة [3] ومثل هذا الحجز والأسر يبقى دائما لا علاقة له بالعبودية أو للرق، أي أن مصير الأسير لا يشبه مصير العبد، بل ظاهرة الأسر هذه يمكن تحديدها أيضا بأنها حللة عرضية أو استثنائية تسببت في ظهورها عوامل غير تلك العوامل للتي ينتج عنها عبر للتاريخ ما يسمى بظاهرة العبودية؛ وهي ظاهرة كما نعرف تجعل الذي يقع تحت طائلتها إما بالصدفة أو بالولاء أو بالوراثة يحدد مصيره وقد تعلم للروابط للتي تربطه بولي أمره أو بسيده أو بالسلطة للتي يعيش تحت رحمتها، في حين أن الأسير نجده من هذه الناحية يفتقر إلى هذا المصير المعلوم فهو منفصل عن كل سبب ويعيش في غياهب السجون والزنزلنات أو المطبقات مصيره مجهول وأمله في البقاء أو التحرر جد ضئيل.

والعبودية تاريخيا ينحدر مدلولها الأوروبي "Esclavitud" من الأصل اللاتيني هو الآخر وهو "Sclavus" أو من التركيب المزجي اللاتيني الإغريقي

"Sklavos" وهو المصطلح للذي اعتمد فيما بعد في الحوليات العربية الأندلسية ليصبح يعني طائفة العبيد "الصقالبة" لأن هذه النوعية للتي عرفتها بلاطات الأندلس تدخل ضمن للرق "Esclavitud" فهي نوعية فقدت حريتها وصارت تحت طائلة من يمتلكها من هناك تكون حظوظ التحرر بالنسبة للعبيد شبه منعدمة في حين يبقى الأسير أمامه من حظوظ العتق مجال مفتوح إذا كان هناك من هو مستعد لفدائه نقدا حسب ما تحدد الظروف ومن هناك يتأكد لنا مرة أخرى أن ظاهرة "الأسر" هي ظاهرة عرضية لم يكن القصد من ورائها لستعباد البشر بل القصد من ورائها قد يكون سياسيًا أو اقتصاديًا، فالأسير في مثل هذه الحال يستعمل كوسيلة ضغط على الخصم وهو يشبه إلى حد ما ما ينجم عن القرصنة المعاصرة كاختطاف الأشخاص والرهائن.

وظاهرة العبودية كما هو معروف ظاهرة ممعنة في للقدم فقد تفشت في كل الحضارات لأنها كلنت تشكل إحدى أسس التركيبات الاجتماعية حيث تأتي من حيث ترتيب السلم الاجتماعي في أدنى درجة، إن لم نقل في حضيض المجتمع ومن هناك كان اتصالها دائما بكل ما هو دوني وحقير جد وثيق.

فطبقة العبيد في الحضارات القديمة[4] كالفرعونية والبابلية والإغريقية والرومانية تكاد تكون لحدة حيث كان يؤخذ على عاتقها إنجاز المشارع الضخمة التي تتحدى عاديات الزمان، وعلى عاتقها كان يتم لستخراج كنوز الأرض بدون شكر ولا مقابل ودون أدنى الحقوق بل كان نصيب هذه الطبقة من الحياة هو ما يَسُدُّ رمقها من الغذاء أو يُقوّم أودها لمواصلة العمل والعمل

للدؤوب وللذي غلبا ما يكون شاقا ومضنيا ومرهقا حيث يعجل بالفناء ويتطلب البحث المستمر على للبدائل لذا تكاثرت أسواق النخاسة والمتاجرة بالبشر وكان ثمن هذه البضاعة غالبا ما يكون سعر للفرد فيها دون سعر الحمير، إلا أن هناك نوعية من العبيد ربما الأقوياء والأشداد وذوي المواهب الخارقة كانوا يستعملون كمرتزقة للقيام بالمهام الخطيرة في الحروب أو الحراسات المشددة على الملوك والأباطرة حيث ينعدم الأمن والثقة فهم كطرف محايد آلي التحرك والانقياد ولا يناقش حين يؤمر فيطيع.

كانت حال العبيد في مختلف الحضارات القديمة تكاد تكون متشابهة وإن كانت هناك من مفاضلات تُذكر فإنها لا تتجاوز نوعية المعاملات التي يحظى بها العبد من قبل سيده، وظلت حال العبيد على ما هي عليه إلى أن ظهرت للديانات السماوية فحاولت المسيحية مثلا جاهدة كسر هذا التمايز الطبقي لتجعل من العبد وسيده مثلا كلاهما كائن حي، كما عملت على عتق الكثير من العبيد بوسطة للفداء ودفع مستحقات العبد للتي تلاحقه منذ سقوطه في أُنشوطة الاستعباد، كما واصلت الديانة الإسلامية حربها على مثل هذه للفوارق الاجتماعية والعرقية وجعلت ميزان التفاضل بين بني البشر، إن كان هناك تفاضل، ينحصر في العمل الصالح أو التقوى وما دون ذلك فلا أساس له من الصحة، وعملت الديانة الإسلامية جاهدة هي الأخرى على إبطال هذا التقليد وكان عليها أن تنتظر قرونا عدة كي تختفي، ولو نسبيا، مثل هذه الظاهرة الأمر للذي جعل العديد من الحدود الشرعية لا يكفر عنها مثلا إلا بالعتق وتحرير الرقبة وهو الأسلوب

التدريجي الذي انتهجه الإسلام متفاديا أخذ قضية العبيد على عاتقه والتي لو تبناها في رأينا ربما لألصقت بالدين الإسلامي سمة ثورة العبيد. كما عرف التاريخ العديد من انتفاضات العبيد من مثل ثورة العبد "اسبرتاكوس" في عهد الرومان .. وبعده ثورة الزنج في العصر العباسي، وما إلى ذلك ...

هذه باختصار شديد نبذة عن ظاهرتين عالجتا الرق البشرية تعاني منهما إلى يومنا هذا، وإن كان لكل عصر ظروفه إلا أن الاستعباد والأسر لا أعتقد أنهما سينعدمان من الوجود لأن سنة الحياة اقتضت ضرورة للتدافع من أجل البقاء لذا سيظل الاستعباد والأسر من خصائص البشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ومن هناك تحضرني مقولة للشاعر العبد الروماني "اسبرتاكوس" القائلة : "الإله خلق الإنسان والإنسان خلق العبودية" وكذلك مقولة عمر بن الخطاب المستنكرة لمثل هذا الصنيع "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا" ...

2ـ تسمية "الجزائر" كما توضحها المصادر التاريخية :

يجمع المؤرخون القدامى على أن الجزائر كمدينة وكموقع جغرافي كان ظهورها مبكرا ويرجع إلى عهد الفينيقيين[5] فموقعها الاستراتيجي المطل على البحر كان سببا في جلب انتباه واهتمام الفينيقيين لمثل هذه البقعة. فعلى إثر استقرارهم بقرطاج دفع بهم الفضول التجاري إلى تتبع سواحل البحر المتوسط وإنشاء قواعد تجارية نابضة على طول الساحل، فيؤكد المؤرخ جان مازال (Jean Mazel) أنه على طول ساحل الجزائر الحالية إلى غاية المغرب الأقصى يجمع بعض المتخصصين في الشؤون التاريخية القديمة أن

القرطاجيين تمكنوا من تشييد مواقع تجارية على طول السواحل المذكورة يقدر عددها بموقع في كل ثلاثين كلمترا (30 كلم) [6]، أما المؤرخ A. Heeren فإنه يؤكد بدوره على مثل هذا الحضور الفينيقي المبكر على طول هذه السواحل ويرجع هذا الإهتمام إلى العامل التجاري المميز للحضارة الفينيقية [7]، أما المؤرخ Jagues Heurgan فإنه بدوره يؤكد هذا الحدث ويشدد على يقينية التواجد التجاري الفينيقي على طول سواحل المتوسط ويحدد هذه المواقع التجارية بمعدل موقع في كل خمس وثلاثين كيلمترا (35كلم) [8] الأمر للذي جعل المؤرخ Moncer Rouissi يرجع بداية ظهور تاريخ مدينة الجزائر إلى العهد الفينيقي المبكر والمتوارث فيما بعد من قبل القرطاجيين حيث يبدأ معهم تاريخ مدينة الجزئر الحقيقي. ومن خصائص الفينيقيين والقرطاجيين أنهم كانوا شعوبا معروفة بالخصوصية التجارية وهي خصوصية كما نعرف تتطلب الدينامية والحركة فكانت هيمنتهم تعتمد التجارة لا العنف لذا كثيرا ما قارن بعض المؤرخين شعوبا ظهرت فيما بعد إشتهرت بخصوصيتها التجارية من مثل بريطانيا وإمارة البندقية بالقرطاجيين.

أما في المصادر التاريخية القديمة فنجد مدينة الجزئر تظهر بتسمية لاتينية وهي Icosium ونجد في حوليات الإمبراطور الروماني Antonio يحدد المسافة الكائنة بين (Julien Caesarea) شرشال الحالية وبين مدينة الجزئر (Icosium) آنذاك بحوالي ثلاثة وستين ميلا وهي مسافة لا تختلف كثيرا عن التي تفصل اليوم بين شرشال والجزئر العاصمة [9] أما المؤرخ Plinio في تاريخه الطبيعي "Historia Natural" فإنه يتعرض بالذكر لقانون

المستعمرة الرومانية الممنوح من قبل روما لمستعمرتها cosium وذلك من طرف الإمبراطور الروماني Vespasiano مثل ما هي الحال بالنسبة للمستعمرة الأخرى المجاورة لها والتي هي "Lole" وهي الإقلمة الملكية كما هو معروف للملك يوبا الثاني (Juba II) [10] في حين نجد بعض المؤرخين من التبس عليه الأمر فراح يخلط بين المدينتين والتسميتين مثل ما هي الحال بالنسبة للأسير الإسباني الدكتور صُوصَا صاحب كتاب "طبوغرافيا الجزائر" فقيصرية شرشال غير Icosium.

إلى جانب هذه الإشارات التاريخية المفرقة بين قيصرية شرشال ومدينة الجزائر Icosium فإن هناك إشارات أخرى مستوحاة من بعض الأساطير اللاتينية والتي ترجع سبب نشأة مدينة الجزائر إلى عبور البطل الأسطوري هرقل، رفقة عشرين من أتباعه بهذه المناطق حيث كانت مدينة الجزائر من إنشاء رفاق هرقل (Hercules) وأطلقوا عليها اسم "Eicosin" وهو قريب من Icosium وترجع هذه المفارقة الطفيفة إلى النطق اللاتيني الذي حور فيما بعد ليصبح يعرف بـ Icosium وهذه الإشارة الأسطورية نجدها عند المؤرخ Solino الذي يذكر أنه لما عبر هرقل بصحبة رفاقه العشرين وقع اختيارهم على خليج مدينة الجزائر الحالية فأنشأوا مدينة وحصنوها ولكي لا يعود الفضل في الإنجاز إلى أي أحد منهم أجمعوا على تسميتها Ikosin والتي معناها المنشئون العشرون، وتحورت فيما بعد إلى Icosion وفي الأخير استقرت على Icosium التي تعني عشرين [11] لكن هذا التفسير الخُرافي كان محل انتقاد شديد ورفض قاطع من قبل جملة من المؤرخين المحققين من

أمثال Philbert و jean Mazel وكذلك الأستاذ Cantineau Jacques و gérard Victor حيث قدموا دراسة لسانية ولغوية لأصل كلمة Icosium وتوصلوا إلى أنها كلمة لاتينية مركبة تركيبا مزجيا من شقين الشق الأول "I" وللذي هو إختزال لإسم "Isla" أي "جزيرة " أما الشق للثاني فهو "Kosim" للذي يعني "Gaviotas" أي "نوارس" [12] والمصادر التاريخية القديمة والحديثة تتحدث عن المكانة المتميزة التي كانت تحظى بها "جزيرة النوارس" أي الجزائر من طرف الرومان حيث كانت قاعدة هامة تزخر بالعديد من المآثر العمرانية كالمعابد وكذلك صك النقود واستمر حالها المتميز إلى أن تعرضت إلى هجمات الأمير المغربي المتمرد فيرموس (Firmus) للذي رفض الإنصياع إلى روما، وفضل المقاومة والتمرد فكانت الجزائر إحدى ضحايا هجوماته ولم تتوقف حال مدينة الجزائر عند حد هذا الخطر بل استفاقت ثانية على ما هو أدهى وأشرس حيث كان الوندل لها بالمرصاد فكانوا سببا في خرابها ودمارها الشبه الكلي ومنذ ذلك العهد خبا ذكرها إلى أن قدمت طلائع للفتح العربي الإسلامي وكان على مدينة الجزائر أن تنتظر حدود للقرن الحادي عشر الميلادي لتعود من جديد قاعدة بحرية وجزرا نشيطة لبني مزغنى كما يذكر البكري (1010م-1094م) في مسالكه "جزائر بني مزغنى " وهي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للأول محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور الحيوانات بأحكم عمل وإبداع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعلق للقرون ولها أسواق ومسجد جامع وكانت بمدينة بني

مزغنى كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق إلى للغرب وهو لليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثيرة النقوش والصور ومرساها مأمون له عيون عذبة يقصد إليها أهل السفن من إفريقية والأندلس وغيرهم لثم تحولت فيما بعد كما هو معروف إلى قلعة لملك قبيلة الثعللبة قبل وصول الأتراك العثمانيين، وفي هذه الفترة عرفت مدينة الجزائر نشاطا تجاريا متميزا مع كل المدن الساحلية تقريبا وخاصة برشلونة ومرسيليا وبياليرمو فتحول مرفأها إلى ملتقى التجارات العالمية وقد تزامن حكم الثعالبة [14] للجزائر بقيادة شيخهم سليم تومي مع قدوم الأخوين خير الدين والتي بعد تسع وعشرين سنة (29) من الامتناع والتردد تقع في قبضة خير للدين للذي ستعرف معه مدينة الجزئر تاريخا جديدا حافلا بالإنتصارات والمغامرات والسيطرة والقوة والعظمة. كما ستعرف الجزائر نظاما إداريا وعسكريا واجتماعيا وسيلسيا مهد لها السبيل لتصبح قلعدة للإسلام والمسلمين تعرف "بدار الجهاد" أو "دار الإسلام" أو "عش لصوص البحر" كما تسميها المراجع الأوروبية [15] ولعل بعض المصادر الأجنبية هي أول من وجه الاتهام إلى الجزئر كقلعدة للصوص البحر، أو كجهنم لمن يقع تحت طائلتها، إلا أنهم نسوا أو تناسوا أن حرفة "اللصوصية البحرية" كانت من ابتكار من تسميهم المراجع الأجنبية "بفرسان مالطا" أو التنظيم الصليبي لفرسان مالطا حسب رأي المؤرخ Mesnard Pierre [16]. ومن هناك جاء دافع بهجت للثاني العثماني للذي أمهر ظهيرا سلطانيا يبيح لبعض التابعين للإيالة العثمانية احتراف القرصنة كرد فعل طبيعي لحملية المسلمين، وهي حرفة كما هو معروف غير حرفة لصوص

البحر، ومن هناك كلنت الفرصة سانحة لظهور الأخوين عروج وخير للدين اللذان كانا في بدلية أمرهما يحترفان اللصوصية (Piratrie) وبعدها تحولا إلى قراصنة مهمتهم إنجاد المستغيثين من المسلمين من موريسكيين فارين من محاكم التفتيش بالأندلس وجزائريين واقعين تحت نير الإحتلال الإسباني المسيحي، فلما عظم شأنهما كما هو معروف تاريخيا لستدعيا لإنقاذ الجزائر من الحصار الإسباني للذي ولجه مدينة الجزائر في عرض سواحلها متخذا من إحدى جزرها للتي ينعتونها بالصخرة (pinon) قاعدة متقدمة لتشديد الخناق على الجزائر ومرلقبة أوضاع المدينة عن كثب مثلما فعلوا طوال للقرن الخامس عشر الميلادي مع غرنلطة حيث حاصرها الملكان الكاثوليكيان بإنشاء مدينة Santa Fé (الإيمان المقدس) للتي كلنت في غوطة (La Vega) غرناطة.

وكان على الجزائريين أن ينتظروا اغتيال حاكم الجزائر سليم تومي على يد عروج كما يؤكد الأسير الإسباني أنطونيو صُوصا في كتابه، ثم سقوط عروج قرب تلمسان على يد الإسبان عام 1518، ثم وصول تاريخ 29 ماي عام 1529 م كحد فاصل للقضاء النهائي على الحلمية الإسبانية للتي، كما تجمع المصادر التاريخية، تم تدميرها كلية ولم ينج منها إلا ثلاثة وخمسين جنديا (53) وثلاث نساء وقلئدهم القبطان فرقاس (Vargas) حيث وقع جميعهم في قبضة خير للدين ومن هناك دخلت الجزائر بجدارة إلى ما سيغرف بعهد "رياس البحر" ليمتد تاريخها، إلى غلية 1830، تاريخ الحملة الفرنسية على الجزائر.

كل المصادر الأروبية لبتداءا من Juan Botera Benes إلى اللاهوتي الأسير للدكتور أنطونيو صُوصا للذي عانى ويلات مغارات سُجون الجزائر رفقة مواطنه الكلتب الإسباني الشهير ميقال دي ثيرفانتس (Miiguel De Cervantes) مؤلف كتاب للدونكخوطي الشهير وذلك من عام 1577 إلى تاريخ افتدائه عام 1581 حيث ترك لنا للدكتور صُوصا وثيقة هامة وصف فيها حال الجزائر آنذاك، مرورا بهؤلاء وإلى غلية الأستاذ جاك بيرك (Jaque Berque) الكلّ يجمع على أن مدينة الجزائر كانت بمثابة القلعة التي لا تقهر وذلك نظرا لحصانتها وموقعها الذي يشبهه للدكتور صُوصا بالقوس، وكذلك قلاعها وتحصيناتها التي سخر لانجازها العديد من الأسرى من مختلف الجنسيات مما جعلها مستحيلة المنال، بالإضافة إلى أنها كانت آهلة بأعتى الفرسان من الإنكشارية وأشرس الشجعان من القراصنة ولصوص البحر لا يصعب لُمامهم إدراك أي نقطة على طول وعرض البحر المتوسط، وقد تمادى نفوذهم إلى الولوج إلى أعالي المحيطات كإدراكهم مثلا أرخبيل كناریاس (Canarias) فكانوا كما تجمع المصادر محل رهبة وهيبة وفزع حيث حلوا.

طبغرافيا تاريخ الجزائر العام للأسير الإسباني الدكتور أنطونيو صُوصا (Sosa):

إن كتاب الأسير الإسباني للدكتور صُوصا "طبغرافيا تاريخ الجزائر للعام" يعتبر من الوثائق النادرة والهامة التي ترتبط بالجزائر عاصمة وشعبا، ومحطة للأسرى المسيحيين، ومركزا هاما من مراكز للقرار العثماني التركي، وموقعا متميزا للقراصنة والانكشارية. فلهذا الكتاب أهمية لأسباب عدة يأتي

في مقدمتها أنّ صاحب هذا التأليف هو من للذين علشوا ويلات الأسر في الجزائر، كما يعتبر من المستنيرين القلائل للتي حظيت باستضافتهم سجون الجزئر شأنه في ذلك شأن غيره من مشاهير الكتاب الأسبان من أمثال ميقال دي ثرفانتس لذا فشهادة هؤلاء تُعدُّ وثائق تاريخية لأنها صادرة عن شخص واع وعن شاهد عيان ومن طرف معاد أو أجنبي قد تقع عينه على ما لا تقع عليه أعين الأهالي.

لقد نُشر كتاب للدكتور صُوصا لأول مرة في مدينة بلد الوليد (Valladolid) في شهر جوان عام 1612 وصاحب الكتاب كان قد تعرض للأسر والإختطاف من طرف رياس البحر الجزئريين في شهر أفريل عام 1577 بينما كان يستقل سفينة تلبعة لقراصنة مالطا رفقة مائتين وتسعة وثمانين شخصا كلهم وقعوا في قبضة الأسر، وكان رفقة للدكتور صوصا أحد فرسان مالطا الصليبي الكلتب البرتغالي الشهير Luis De Sousa للذي تعرف على ثرفانتس أيام أسرهملبالجزائر، وصوصا من خلال كتلبه يعدد لنا وجود إثنتين وستين شخصية (62) مثقفة ما بين رجل دين إلى عالم في الإنسانيات إلى عارف للعديد من اللغات ومن جنسيات مختلفة.

يقول الدكتور صُوصا، وحسب الإحصاء الذي انتهى إليه، كان عددهم لثنين وستين شخصية علمية مما جعل صُوصا أثناء مقلمه بالأسر تتوسع مداركه المعرفية بفضل هذا الإحتكاك المتنوع فيروي لأنه لما لفتُدِي عام 1581 كان في حوزته العديد من المعلومات الهلمة والسرية للتى جعلها تحت تصرف أوروبا لتطلع على حللة السواحل بمناطق بربيا (Berberia) كما

يسميها، كما كان الدكتور صُوصا مؤلفا لمذكرات أرسل بها عام 1580 إلى البابا قريقوريو الثلث عشر (Gregorio XIII) وإلى ملك إسبانيا فيليب الثاني (Felipé II) وإلى بعض الأمراء المسيحيين الآخرين.

ألفا محقق أعمال الكلتب الإسباني الشهير ثرفانتس بيريث بلسطور (Perez Pastor) فيذكر أن للدكتور صوصا، على أعقاب إطلاق صراحه، مرّ بمدريد وهناك سلم إلى السلطات الملكية العديد من الوثائق حول وضعية الجزئر، كما أُسندت لهذا الرلهب المتخصص في الإنسانيات واللاهوت عدة مهام دينية وتربوية ببلاط ملك لسبانيا إلى أن ولفته المنية بمدريد في شهر مارس عام 1610.

القيمة التاريخية لهذا الكتاب:

إن كتاب للدكتور صُوصا "طبغرلفيلتاريخ الجزئر للعام" [17] يعد من الوثائق الثمينة بالنسبة لتاريخ الجزئر للقديم علمة والفترة العثملنية التركية خاصة، كما يعد مهما أيضا بالنسبة لأخبار الأسرِ والأسْرى ومن ضمنهم العديد من المثقفين الذين مروا بالجزائر، ومن هناك كانت أهمية هذا الكتاب باللغة بالنسبة للمتخصصين في أعمال الكلتب الإسباني الشهير ميقال دي ثرفانتس. فكتاب صُوصا جاء عبارة عن مزيج من المعلومات التاريخية والأدبية وهو يتشكل من جزئين الجزء الأول يغلب عليه الطابع للتاريخي القصصي وينقسم إلى بابين كبيرين باب خصصه لتاريخ حكام الجزئر العثمانيين الأتراك، وباب خصصه لوصف مدينة الجزئر العاصمة الإ فريقية

ومحطة التقاء الأجناس وظروفهم في الزنازن فهي على حد تعبير الكلتب بمثابة بابل.

أما الجزء الثاني فيغلب عليه الطابع الأدبي حيث تعرض فيه المؤلف بطريقة حوارية إلى الكيفية التي كانت تمر بها حياة الأسرى المسيحيين، كما يتعرض بالذكر لشهداء العقيدة منهم للذين ماتوا في غياهب سجون الجزائر الذين من بينهم على وجه الخصوص المسيحيون الإسبان، لما طريقة الحوار في هذا الجزء فكانت تدور بين المؤلف ولحد الأسرى الحقيقيين من أمثال القائد الإسباني أنطونيو قونثاليث دي طوريس (Antonio Gonzalez de Torrés) أو القبطان خيرونمو رلميراث (Jeronimo Ramirez).. لكن الفصل الآخر فنجده يخصصه للمرابطين الجزائريين، أو رجال الزوليا حيث يتخذ من المسمى حمود (Hamud) وهو ابن لأحد المرتدين للديانة الإسلامية طرفا في الحوار..

من هناك اعتبر مقدم هذا الكتاب Don Ignacio Bancer Y Landauer أن قيمة الحقائق الواردة في هذا الفصل تعود إلى شهادات حية سجلها للدكتور صُوصا من أفواه بعض الأسرى، كما أنه يذكر بأنه لم يعتمد الرولية الشفوية فقط بل اعتمد بعض المصادر التاريخية المعروفة كوصف إفريقيا لليون الإفريقي (Juan Leon Africano) ومصادر أخرى قديمة كألواح بلينيو وجغرافية لستربون (Estrabon) كل هذه المصادر أسعفته في تحديد المولقع الجغرافية الطبيعية والساحلية للجزائر منذ عهد الرومان.

أما فيما يتعلق بالكيفية التي أصبحت فيها الجزائر تحت الإيالة العثمانية التركية فيظهر أن المؤلف اعتمد شهادات حية استقاها من بعض الإنكشارية أو القراصنة أو الأتراك.

بعد هذا نجد الدكتور صُوصا يخصص واحدا وأربعين (41) فصلا للحديث عن كل أنواع الحياة الإجتماعية وعادات الجزائر لكن ما يلاحظ عن هذا الجزء المخصص للجزائر أنه ظل بعيدا نسبيا عن اهتمامات الدارسين القدامى منهم والمحدثين ما عدا بعض الترجمات الجزئية لفصوله والمجزأة اضطلع بها بعض الفرنسيين بتكليف من الإدارة الإستعمارية ربما القصد منها الإستفادة من المعلومات التي تحتوي عليها والتي من الممكن أن تكون ذات أهمية بالنسبة للغزاة الفرنسيين فقام كل من .Berbigger و Monnerou بترجمة أجزاء ظهرت تباعا في المجلة الإفريقية المجلدين XIV وXV كما ظهر جزء خاص بدايات الجزائر قام بترجمته M.de Grammont...

أما المهتمون بهذا الكتاب من الدارسين فيظهر أنهم قلّة فنجد تقريبا كلا من Albert Mas و gerges Camamis [18] من الأسماء البارزة التي اهتمت بهذا الأثر. فالأول كان اهتمامه بكتاب صُوصا القصد منه استنتاج بعض الحقائق حول حياة الأسرى بالجزائر، أما الثاني، وربما الأهم، فقد تعرض بالدراسة والنقد والتحليل لكل الفصول المتعلقة بتاريخ الجزائر وكذلك الجانب الإنتوغرافي والعادات والنظام السياسي والعسكري والأمني، وكذلك الوصف العمراني لمدينة يقال لها الجزائر التي طالما أرعبت لقرون عدة كل القوى المسيحية بأوروبا من بريطانيا إلى البندقية تزرع في أوساطهم الهلع

المتواصل إلى غلية المحيط الأطلسي وإلى حدود الأراضي للباردة بإرلندا وللتي قام بها قراصنة الجزئر باختطاف ثمانمئة أسير بدون عناء يذكر وتمّ بيعهم في أسواق الجزائر كما يذكر Camamis.

إن للباب للعالي كان يعتبر الجزئر كالهند أو البيرو بالنسبة لإسبانيا. الأمر للذي دفع ببعض الكتاب المسلمين من أمثال محمد التلساني من رجالات للقرن السادس عشر ومؤلف كتاب "الزهرات النيرة" أن يرفع صوته عليا ومدويا من شدة الزهو بهذه الإنتصارات ويعلن قائلا: "النصر لك يا جزئر الشجعان للتي ضمخت ترابك بدماء الكفر (Infièles) فمثل هذه الكبرياء دفعت بالكلتب الإسباني الشهير لسير سجون الجزئر ميقال دي ثرفانتس إلى أن يرد عليه في قصة "Persiles Y Sigismunda" مسميا الجزئر "الشرسة والأكثر توحشا على طول ساحل البحر المتوسط".

أما للدكتور صُوصا فنجده يقول حول قِدَم مدينة الجزئر أنها تدخل ضمن ولاية إفريقيا المسماة موريطانيا القيصرية على ساحل المتوسط على ارتفاع 37 درجة أو أكثر قليلا ويذكر أنها كانت تسمى "Iol Cesarea" التسمية التي أثبتنا عدم صحتها في البداية وربما هذا الخطأ للذي وقع فيه الدكتور صُوصا جاءه من المؤرخ الروماني Estabon للذي حدد مرسى الجزئر بموقع موريطانيا القيصرية للتي يطلق عليها الرومان تسمية Iol Cesarea لأن هذه البقعة لها خليج شبيه بخليج جزئر للقرن السادس عشر والإلتباس حسب رأي المحققين كما سبق وأن ذكرنا جاء من تشابه موقع الجزئر في القرن السادس عشر وشرشال الرومانية والتي كان يطلق عليها الرومان تسمية

Iol Cesarea . أما تسمية الجزائر أيام الرومان فهي كما حددنا في البداية Icosium ثم يروح الدكتور صُوصا مذكرا بتاريخ الجزائر الرومانية معتمدا في ذلك معلومات المؤرخ الروماني Aulo Glio فيقول إن سكان هذه المدينة على العهد الروماني كانوا رومانيين في قوانينهم حتى النخاع، وكذلك تقاليدهم وعاداتهم وحفلاتهم ولغتهم ومعاملاتهم وعمرانهم وألعابهم وحتى لباسهم... إنهم جزء لا يتجزأ من مدينة روما... كما يتعرض فيما بعد إلى غزو الوندال للجزائر الرومانية عام 427 م بقيادة كل من Genserico و Gunthario إلى أن يصل إلى ذكر الزحف العربي عام 697م أيام الإمبراطور Leoncio.

أما في الفصل الثاني فيتعرض الدكتور صوصا إلى الحكم الإسلامي موضحا كيف تعرضت إفريقيا من جرّائه حسب رأيه إلى العديد من الخسائر وكذلك إسبانيا ويذكر أنه في ذلك الوقت أخذت الجزائر تسميتها الحالية الدالة على صيغة الجمع لجزيرة ويخلص إلى القول بأن هذه التسمية العربية اشتقت أو نحتت منها التسميات الأوروبية كـ "Argel" في اللغة الإسبانية و"Algérie" في كل من الإيطالية والفرنسية.

أما الفصل الثالث فيقص فيه الكيفية والظروف التي أحاطت بالجزائر لتقع تحت حكم مملكة تلمسان وذلك على إثر صراع بينها وبين بجاية التابعة آنذاك للحفصيين بتونس الأمر الذي أجبرها على إعلان الطاعة إلى سلطان تلمسان وبعدها مباشرة يشرع في سرد الزحف الإسباني واحتلاله لوهران وبجاية من طرف القائد El Cond Navaro وذلك عام 1509م الأمر

الذي حمل الجزائر على طلب الحماية كما يذكر الدكتور صُوصا من شيخ عربي من شيوخ المتيجة والمسمى سليم تومي ليحميهم من سياسة الهيمنة الأسبانية.

أما الفصل الرابع فيذكر فيه كيف وقعت الجزائر تحت الإيالة العثمانية التركية ويرجع ذلك إلى الصدفة وليس إلى سابق تدبير وإنما شجع على هذا البقاء المجيء الإسباني مما حمل الجزائريين على التضامن مع الامبراطورية العثمانية كما ساعد الأخوين عروج وخير الدين على تولي أمور الجزائر فيما بعد... وفي هذا الفصل يتعرض صُوصا لحادث اغتيال الشيخ سليم تومي ويؤكد على أنه تم على يد عروج ثم يواصل سرده لتاريخ دايات الجزائر.

..أما الفصل الخامس وإلى غاية العاشر فقد تعرض فيها الدكتور صوصا إلى وصف الجزائر كالقلعة من الداخل مدققا في تعداد المراكز الأمنية لرجال السلطة وبيوت الصناعات الحربية والبحرية وكل أنواع المواقع الدفاعية التي تتحصن بها هذه المدينة التي لا تقهر؛ فيصف موقعها الجغرافي الذي يشبهه بقوس منجنيق « Arco de Ballestra » حيث ظهر المدينة يمثلها للقوس وهو يتكئ على هضبة وعرة المسالك يتدرج علوها إلى أن يتحول إلى مكان شاهق منيع، وأما واجهتها البحرية فهي محصنة بصور عال بني بالآجرّ والجصّ وطول دورته تزيد عن ألف وثمانمائة قدم ويبلغ طول مجموع سورها المحيط بها ثلاثة آلاف وأربعمائة قدم (3400)، أما من الفصل السادس إلى العاشر فيأتي التعداد المطول والدقيق لكل منافذ الجزائر وبوّاباتها التّسع، وكذلك محارسها المتمثلة في الأبراج المطلة ثم

يصف الخندق للقديم الحامي للجزئر وللذي يبلغ عرضه سبعة عشر قدما مع ذكره للمدافع المنصوبة في كل ركن وبرج من أبراج المرلقبة سواء عن قرب أو عن بعد، ويظهر من خلال وصف للدكتور صوصا للدقيق لهذه الأماكن الحسّلسة في مدينة الجزئر الهدف من إعطاء تفاصيلها وتعدادها ونوعيتها هو تزويد المسيحيين في أوروبا بكل تفاصيلها علّها تسهل لهم مهمة اجتياحها أو التحضير المحكم لغزوها، فيذكر على سبيل المثال بعض المواقع الهشّة التي يسهل اقتحامها دون عناء كإقلعة للرايس عِلْج علي للتي يصفها بأنها سهلة المنال لو اقتحمها المسيحيون لأدركوها دون أي خسارة تذكر، وفي مكان آخر نجده يشير وكأني به يحاول إزللة الهلع عن بني جلدته من كون أن هذه المدينة وإن بدت محصنة ومنيعة فإنها لا تخلو من نقاط ضعف فتوجد بها بعض المواقع الهشّة للتي يمكن اختراقها بسهولة لو تستخدم المتفجرات مثلا؛ لأن مادة بنائها كما يؤكد لينة وسهلة للتهديم والإختراق، ثم يذكر بأن المدينة لا تخلو من العديد من الأنفاق المنتشرة بحدائقها والموصلة إلى وسطها.

ولبتداء من الفصل الحادي عشر (XI) نجد معظم وصف للدكتور صوصا لمدينة الجزئر ينصبّ على الحياة الإجتماعية وعادات سكانها، والملفت للإنتباه هو تعدد النوعيات العرقية والدينية غير المتجانسة والقاطنة كلها في هذه المدينة للتي تحولت حسب رأي صوصا إلى ما يشبه "برج بلبل" تاريخيا، وهنا نجده يتفق مع رفيقه الكلتب الشهير ثرفانتس (Cervantes) للذي يؤكد هو بدوره في مؤلفاته للتي تتحدث عن الجزئر عن

مثل هذا الخليط العرقي واللغوي وأن الجميع توصلوا إلى التفاهم فيما بينهم دون أن يفرض طرف على الآخر لغته، كما يضيف ثيفانتس أن من خاصيات مدينة القراصنة هذه "أن كل شيء يباع فيها ويشترى بسهولة" وهي شهادات تعاضدها شهادات الدكتور صوصا وبعض الأسرى الأخرين. فللدكتور صوصا يركز على تحديد النوعيات العرقية المتعايشة في هذه المدينة البحرية فيقول:" إنهم بصفة علمة عرب وأتراك ويهود بالإضافة إلى المسيحيين المتكاثرين من مختلف الجنسيات والذي يوجد معظمهم تحت الأرض ضمن الأسرى وبعضهم فوق الأرض يمارس حياة الرقيق وقد حدد عددهم تقريبا بحوالي خمسة وعشرين ألف أسير (25000) يضاف إليهم التجار الوافدين من بقاع مختلفة والتي تعتبر إقامتهم بهذه المدينة غير قارة"، وحين يتعرض الدكتور صوصا في مؤلفه إلى تحديد أكثر لنوعية سكان مدينة الجزائر فإننا نجده يقسمهم إلى أربعة أصناف: "الصنف الأول هو صنف الأهالي الأصليين أو البلديين "Baladies" والصنف الثاني هم: القبائل أو البرابرة النازحين إلى المدينة من الجبال، والصنف الثالث هم: العرب "Alarbes" أو البدو النازحين من الصحاري، وأما الصنف الرابع فهم: الموريسكيون الوافدون من غرناطة وأراغون وبلنسية وقطالونيا، ولما يذكر هذه الطائفة النازحة من الأندلس المنهزمة يصنفها إلى قسمين: قسم يقال له: المدجنون "Mudejares" وأغلبهم من مناطق الأندلس كغرناطة وماجاورها، والآخرون: ثغريون ومعظمهم من مناطق شمالية كبلنسية وأراغون وقطالونيا وتغلب على سيماهم الشقرة وطول القامة. فيقول: "مثل أولئك الذين ولدوا باسبانيا أو

قدموا من هناك ويلبس هؤلاء النازحين من الأندلس كالأتراك ويوجد منهم في مدينة الجزائر قرابة ألف بيت".

في حين نجد المؤلف لما يتعرض للجلية المسيحية للتي اعتنقت الإسلام بإرادتها يحدد لنا بعض مواصفاتها الدقيقة والهامة والمتعلقة بالكيفية للتي تتم بها مرلسيم لستقبال مثل هذه النوعية دلخل الجملعة الإسلامية؛ فالمعتنق للإسلام يقول: "يفرض عليه في بادئ الأمر أن يلبس لبلسا تركيلثم يقدمونه إلى العامة وهو يحمل سهما في يده كإشارة، ويطوفون به على صهوة جواد تحت لنغام المزلمير". وهناك وجه آخر لهذه الطقوس ويتمثل في مرلسيم الختان أو "الطهارة" وللتي تتم بالإكراه حسب رليه وتقام في الليل ويستدعي للقيام بهذا العمل أحد اليهود المتخصصين ثم لا ينسى صوصا أنه أثناء إقامة هذا الحفل الكبير تسمع ترديدات "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وبعدهليذكر الهدايا الكثيرة للتي تفد على هذا المسلم الجديد. لما النساء المسيحيات للواتي يعتنقن الإسلام فللدكتور صوصا يخصهن بالوصف أيضا دون أن يسترسل كثيرا لأن الإحتفاء بهن يكون لقل تنوعا من الإحتفاء بالرجال حيث يطلب منهن فقط الإغتسال قصد التطهر وإقلمة الصلاة وقص ناصية الشعر ثم يطلق عليهن أسماء عربية بدل المسيحية.

أما الفصول الأخرى لإلى غلية النهلية فإن للدكتور صوصا يخصصها لوصف الحياة العسكرية؛ كحياة للقادقمن قراصنة وصبائحية للذين هم من أصل تركي ولهم الحرية في التملك والميراث ويسهرون على حراسة للدايات، ولما الصنف الآخر فهم الانكشارية وأغلبهم من لأباء مسيحيين،

كما يشير إلى التنافس الشديد القائم بينهم وبين القراصنة فيذكر على سبيل المثال أن للرايس محمد بلشالبن للرايس صالح فسح لمرات عدة المجال للإنكشاريين للإقلاع في البحر رفقة القراصنة والقيام بنفس للدور، وكذلك الحال بالنسبة للقراصنة للذين يلعبون في بعض الأحيان دور الإنكشاريين ولعل مثل هذه الإشارة سببها التنافس بين للفريقين قصد الظفر بالغنائم أينما وجدت وكيف ما كانت.

هذا بإيجاز شديد محتوى هذا الكتاب الهام للذي يعتبر شهادة حية عن مدينة الجزائر خلال القرن السادس عشر الميلادي.

استنتاجات تاريخية:

بعد هذه اللمحة التاريخية عن تاريخ الأسر ودور الجزلئر كسيادة وقوة ضاربة في البحر الأبيض المتوسط منذ مطلع للقرن السادس عشر الميلادي يستنتج الباحث العديد من الحقائق المذهلة للتي تتجلى في للدور العظيم الذي اضطلعت بحمله الجزلئر على أعقاب انتكاس الحضارة العربية شرقا وغربا كسيادة بحرية فرضت تولزنلبين ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية، ولعبت دورا حلسما في التصدي لإيقاف الهيمنة التوسعية الإنتقلمية الصليبية للتي شرع في التخطيط لها منذ الحروب الصليبية ثم توجت بالهجمات المتتالية من قبل الإمبراطورية المسيحية الإسبانية على إثر سقوط الأندلس عام 1492م، ومرورا بأولى تمركزات هذه الهجمات في كل من وهران والجزلئر وبجلية إلى غلية تونس كلنت قوة الجزلئر في هذا المعترك الساخن يلخصها بعض الباحثين الأوروبيين في ثلاثة محاور أساسية:

– المحور الأول: يتمثل في الحكم للقوي والسلطة المطلقة النابعة من استقلال القرار المؤيد باستمرار من طرف الباب العالي.

– المحور الثاني: يتمثل في للقوة العسكرية الضاربة والمتكونة من تركيبة بشرية محترفة مشكلة من انكشاريين مدربين يؤازرهم في مهامهم الدفاعية عن عاصمتهم الجزائر تكاثف شعبي أثبت في كثير من المناسبات استحالة دحره.

– المحور الثالث: للقوة البحرية الضاربة في أعماق البحر المتوسط والمحيط والمُشكلة من قراصنة محنكين تجلب بفضلهم الغنائم والأسرى التي تعود على الدولة بالرفاهية والإستقرار. أما مهمتهم للتي من أجلها أسس تنظيمهم فهو كما تحدده المصادر التاريخية، هو الحرص الشديد على حملية أمن للبلاد والعباد ومرلقبة شواطئ وسواحل للتراب الجزائري من أي خطر مهما كان مصدره قد يشكل تهديدا أو خرقا مبل يصل الحد بهذه للقوة إلى مطاردة ومصادرة ممتلكات للعدو إلى غلية مواقعه، مع الحرص على تأديبه لزرع العبرة لذا غالبا ما تستعمل مصطلحات في قاموس هذه الطائفة البحرية كما يقول أحد الباحثين في أفعال حركية كذهب "ir" ونخرج "salir" إلى القرصنة وهو وجه من وجوه الواجب الأمني.

أما الإستنتاج الثاني فيتعلق دائما بللدور الخطير للذي لعبته الجزائر في هذه الفترة، ولكن هذه المرة يمثله الصمت المخيف من طرف المرلجع العربية والتي ربما اعتبرت مثل أعمال القرصنة الجبارة بمثلبة المسكوت عنه فليس هناك من الوثائق المسجلة في شكل حوليات رسمية، ولا مذكرات

لرياس البحر، ولا حتى من طرف رجال الثقافة والعلم وهو الأمر المحير كون هذا التطور المذهل في الترسانة الحربية للتي امتلكتها الجزئر، وللتي شهد الخصم بعظمتها، لا نجد لها صدى في السجلات التاريخية العربية ماعدا الشيء القليل للذي لا يلبي حاجة البلحث وللذي لوقيس بما تركه الطرف الآخر المناهض كالاسبان أو الفرنسيين أو الأنجليز أو حتى البرتغاليين لعدَ جد ضئيل، كما أن هذه الوثائق القليلة وهي تحدثنا عن الممارسة البحرية العظيمة للتي اضطلعت بها الجزئر لا تكشف لنا عن أي تطوير حدث أو أي تجديد أو ابتكارات حصلت في دور الصناعات البحرية الخاصة بالتجهيزات أو المعدات بالرغم من كونها كلنت تعتبر حجر الزلوية في الصراع مع الأطراف المناهضة لسيادة الجزئر؛ هذه الأطراف للتي كلنت دائمة السعي لتطوير ترسانتها الحربية والبحرية وهو ما يفسر ترجيح كفة الصراع في النهلية لصالحها ضد كل من للباب للعالي وحليفته الطبيعية الجزائر.

ومن الاستنتاجات المثيرة أيضا هو السكوت شبه للتام من طرف المصادر العربية عن وضعية للعذاب والتشريد والأسر للتي كان يتعرض لها الجزائريون خاصة، والمسلمون علمة على لأيدي قراصنة ولصوص البحر المالطيين والإيطاليين والاسبان والفرنسيين وما إلى ذلك لبتداءا من الحروب الصليبية ومرورا بحوليات الأندلس المأساوية، فليس هناك جرد للأعداد البشرية المشردق في مختلف شواطئ المتوسط الشمالية منها على وجه الخصوص، كما أنها لم تنهض لنجدتهم حملات إنسانية لإغاثتهم أو فديهم

كالتي شهدتها أوروبا منذ للقرن للثاني عشر الميلادي حيث تذكر لنا المصادر الأوروبية أن المسيحيين قد شرعوا في التفكير في قضية لفتداء أسراهم منذ الحروب الصليبية، وكذلك منذ صراعاتهم مع المسلمين بالأندلس، فيذكرون أن أول تنظيم ديني وربما سيلسي أيضا قد أنشئ لهذا للغرض كان ذلك للذي شهد الميلاد بفرنسا، وبالتحديد في إحدى كنائس باريس وسمي "بثالوث للفداء المقدس" (La santa trinidad y Redencion) وذلك عام 1192م وقد جاء هذا التنظيم بناء على فكرة أحد الفرنسيين المتعصبين لدينه المسيحي وهو المدعو جان دي ملطا (Jean de Matha) وقد سارع البلبا Inocento III إلى مباركة هذا الصنيع عام 1198م فشرع في نشر دعاياته المسمومة في أوساط أوروبا كذكره للأهوال للتي يتعرض لها الأسرى المسيحيون في بلاد الإسلام، وكان أغلب هذه القصص المبالغ فيها من نسج الخيال وذلك قصد الوصول إلى أحد المهدفين وهما: تشويه الإسلام والمسلمين وقوتهم العسكرية الشيطانية حسب رأيهم، لستجداء العطف وإثارة الحمية الدينية لتكون التبرعات أكثر ودائمة، الأمر للذي جعل بعض للباحثين الأوروبيين الموضوعيين، إلى حد ما، يستنكرون مثل هذا القص الخرافي وقد تصدى لهؤلاء بالإنتقاذ الفرنسي Langier de Tassy عام 1724 م حيث أنكر على رجال هذه التنظيمات الدينية المتعصبة والمغرضة مثل هذه الدعايات المفضوحة والمبالغ فيها، كما تصدى لهذه الدعايات Peyssonnel الذي يوضح بأن الأتراك المشار لليهم من طرف رجال الدين ليسوا بهذه البشاعة من اللاإنسانية التي لا تحكمها قوانين

محذرا من كل هذه القصص المسمومة التي يفتعلها رجال للدين، ويرجع مثل هذا الحماس والإغراب والمبالغة من طرف رجال للدين ضد المسلمين الأتراك والجزائريين إلى طمعهم الشره في الحصول على المزيد من التبرعات المالية من طرف ذوي النفوس المسيحية الرهيفة.

أما التنظيم للديني السياسي للذي سخر لنفس الغاية؛ أي غوث الأسرى فقد شهد ميلاده ببرشلونة (Barcelona) من طرف المدعو بيدرو نولاسكو (Pedro Nolasco) وذلك عام 1223م، وكان هذا التنظيم في بداية ظهوره لائكيا لا علاقة له بالدين؛ أي على شاكلة المنظمات الإنسانية الحالية، لكنه بعد زمن قصير تقمص شخصية دينية ليتحول إلى تنظيم مهم من قبل القديسة مرثيد (Merced)، وفي عام 1132 م حظي هذا التنظيم بمباركة الراهب سانتياقو دس أرلقون (Santiago de Aragon) للذي منحه أول كنيسة، وعلى إثر هذا الصنيع جاءت مباشرة مباركة البابا قريقوريو التاسع(Gregorio IX)وبذاك تحول التنظيم اللائكي إلى تنظيم ديني رسمي عام 1308 م، وقد كان نشاط هذا التنظيم الخطير موقوفا تقريبا على إسبانيا وإيطاليا، فالأول على سبيل المثال اعتنى بشؤون فرنسا وكل ماله علاقة بها.

بالإضافة إلى هذين التنظيمين للدينيين، ظهرت تنظيمات أُخرى لنفس للغرض، وهو تشويه صورة المسلم الجزائري والتركي على وجه الخصوص، وتهويل أعمالهما المتوحشة تجاه المسيحيين الأبرياء، لكن هذه المرة ظهرت في شكل تنظيمات علمية وتبشيرية وللتي رافقت كما هو معروف الحملات الصليبية على الجزائر إبتداء من للقرن السادس عشر

الميلادي مع الكاردينال الأسباني المشهور خيمنيث دي ثيزنيروس (Zisneros) الذي وهب للغالي والنفيس من أملاك كاتدرائيته بطليطلة لتجهيز الحملات الموجهة لتنصير الجزائر، مرورا، بهذا، فلننا نجد جمعيات ذات صبغة ثقافية تنقيبية في علم الحفريات والآثار كلنت تعمل هي بدورها على تعميق القطيعة بين دول الشمال ودول الجنوب ممثلة في الجزائر، حيث أقدم بعض علماء هذه الجمعيات بحفريات بناء على معطيات تاريخية حسب رأيهم مسجلة في حوليات بعض الأسرى فاستخرجوا العديد من الرفاة التي قالوا في حقها أنها من جرائم القراصنة والإنكشاريين الجزائريين للذين كانوا يدفنون المسيحيين أحياء أو غيرهم ممن اعتنقوا للديانات المسيحية وكانوا قبلها مسلمين! ... وقد استغل رجال للدين مثل هذه للدعايات العلمية ظاهريا ونفثوا فيها من سمهم ليجعلوا من الجزائر العثملنية مقبرة للبشرية فيظهروا أبطالها في شكل مجرمي حرب متوحشيين مولعين بالدماء وأعداء كل ما هو إنساني، فلو يتولى بعض للباحثين على سبيل المثال جمع كل هذه النصوص الدينية المغرضة وللدعايات المفضوحة المناهضة للجزائر ولحليفتها الخلافة العثملنية المجتمعين كلاهما تحت راية الإسلام، يضاف إليها الأوصاف المشينة والصور المشوهة العلقة بالأتراك الجزائريين وتهويل تصرفاتهم ثم رصد كل التنظيمات الدينية المسخرة لهذا التوجه والمغذية لهذه للروح المشحونة بحب الانتقام مع إضافة ملفات محاكم التفتيش السرية السوداء للتي أبلحت إبادة المسلمين في الأندلس، يلخص للدارس إلى محصلة مفادها أن الجزائر كموقع جغرافي وسياسي لعب دور للدفاع

المستميت من أجل توقيف الزحف المسيحي لابد لها من يوم تشهد فيه المحاكمة القاسية، وفعلا كان تاريخ 1830م هو تاريخ فتح ملفات الجزائر الكبرى كي تحاكم ويكون مصير شعبها الاستعمار ومصادرة تربه وما قضية المروحة والتحضر سوى من الذرائع المفضوحة.

المصادر والمراجع حسب ظهورها:

1–أنظر: Vicente Graullera Sang, La esclavitud valencia en los siglos XVI y XVII, C S I C, Valencia, 1979.

–تحديد المصطلح أنظر:

Diccionario Mari Moliner, T,19: 561, S.V Cautivo, Segunda asercio'n

2–أنظر حول عصر رياس البحر:

William Sbencer Algiers in the age of the crosairs, Norman 1976

ترجم هذا الكتاب، عبد للقادر زبادية بعنوان الجزئر في عهد رياس البحر، SSNED الجزائر 1980 ص 39.

3-Dr Antonio de Sosa, Topografia….p.216

4 – يمكن الرجوع للتوسع أكثر في ظاهرة العبودية في القديم إلى المصادر التالية

Diego de Haedo, Topografia e historia general de Argel, Fernandez de lo'rdaba y oviedo, Valladolid 1612.

M.I Finley: Esclavitud autigua e ideologia moderna jacques Ellul, Vitia Barcelona 1982

1- Vicente Graullera Sanz: La esclavitud en valencia en los siglos xvi y xvii, CSIC, Valencia, 1979

- Diccionario Mari Moliner, T1 p.561 s.v Cautivo, segunda asercion

2- William Spencer: Algiers in the Age of the Corcers, Norman 1976.

ترجم هذا الكتاب عبد القادر زبادية بعنوان: الجزائر في عهد رياس البحر، SSNED ص. 39.

3- Dr Antonio de Sosa: Topografia…p.216.

– يمكن الرجوع للتوسع أكثر في ظاهرة العبودية في القديم إلى المصادر التالية

4- Diego de Haedo, Topografia e historia General de Argel, Fernandez de Cordoba y oviedo, valladolid, 1912.

- M.I. Finley, Esclavitud antigua e idiologia moderna, critica, Barcelona, 1982

- Jacques Ellul: Histoire des institutions de l'antiquité, Puf, Paris 1961.

5-Rouissi Moncer: Poulation et société du Maghreb, M.T.E Tunis 1968 p.23

- Attore Pais, Histoire ancienne, P.U.F, Paris 1940 T.13 ed C.I.R p:212.

6-Jean Mazel, El secreto de los Fenicios, ed Bruguera, Barcelona 1973, 3 a parte, C, xxx,p.159.

7- A.H Heeren: De la politique et du commerce des peuples d'antiquité, Firmine Didot, Paris 1830 T.2, 1ère section, C, II, p.35.
8- Jacques Hengon, Roma y el Medit. Occidental, labor , S.A Bacelona 1971 P.I.C III p.80.
9- Antoninus, Emperadore: Itinerarum Antonini Impensis Frederici Nicolai, Berlin, 1848
10- Pline, L'ancienne histoire naturelle, société d'édition "les belles lettres" Paris 1980 Livre5, 20, p.54.
11- Solin, Plyhistor, trad, Agnont, Panckouke Paris 1847,XXXI, p.302-205
12-Philibert M, Cherchell Miscellanees, "Comité du vieille Alger "1973, I, p.2-3

- Adrien Berbrugger, Icosium notice sur les antiquités romaines d'Alger. A. Bourget, Alger 1845 C.6 p.25.
13- Marcel Benabou, La résistance africaine à la romanisation, François Maspero, Paris 1976 C.I.V.II, p.107.

- Stéphane Gsell, Promenades archiologiques aux environs d'Alger, soc.ed "les belles lettres "Paris 1926 C.I, p.20.

14- Jacques Berque, l'intérieur du Maghreb (XVXIX) ed Gallimard, Poitiers, 1978, C.VI. p.208
15- Adriene Berbrugger, le Pegnon d'Alger ou les origines du gouvernement Turc en Algerie, A.Bourget, Alger 1860 p.5-6

- Rinn (Colonel), El Penon de Argel, société de géographie, Alger 1902.

- Henri de Grammont, la course, rev, hist. Paris 1885, p.4-5.

حول أصول الأخوين عروج وخير الدين يمكن اعتماد للدكتور أنطونيو صوصا للذي يحيل إلى أن أصولهما هي ألبانية وقد اعتنقا الإسلام فتزوج عروج بمسيحية من ووقع في أسر فرسان مالطا واستطاع أن ينجو.

16- Pierre Mesnard, Charles Quint et les Barbaresques -2-3 Bordeaux, 1959. II, p: 220 TLXI N Mitilène

17- هذا الكتاب حسب رأي المحققين نسب خطأ للراهب ديغو دي هليدو للذي قام بنشره لأول مرة بمدينة بلد الوليد عام 1612م في مطابع ديغو فيرناديث دي كردوبا بنفقة أنطونيو كويو أحد تجار الكتب، ففي الإهداء يشير الناشر إلى نسبة هذا الكتاب إلى أسقف باليرمو وحاكم مملكة صقلية Don Diego de Haedo إلا أن كلا من للدكتور Emilio Sola , Georges Camamis فإنهما يؤكدان عدم صحة انتساب هذا الكتاب لديغو دي هليدو في حين يظل كل من الكتاب الفرنسيي Ferdinand denis, Henri de Grammont يلحان على وجود أسير بسجون الجزائر يعرف بهذا الإسم ما بين عامي 1578م-1581م.

18- Georges Camamis, Estudios sobre el Cau ytiverio en el siglo de oro, Gredos, Madrid 1977.